أبو / مكتبتنا العربية

الأستاذ

تصدرها كلية التربية بجامعة بغداد

المجلد العاشر

بعددية

١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م

١٠

مطبعة الحكومة ـ بغداد
١٩٦٢

الافعال الناقصة

كان واخواتها

الدكتور محمود غناوى الزهيرى
الاستاذ فى قسم اللغة العربية

١ ـ فعل تام وفعل ناقص :

يقسم النحاة الفعل قسمين : احدهما الفعل التام ، وثانيهما الفعل الناقص ، وقد عرفوا الفعل التام بأنه الفعل الذى تتم به وبمرفوعه جملة كقام محمد أمّا الفعل الناقص فقد عرّفه بعضهم بأنه الفعل الذى لاتتم الجملة معه الا بمرفوع ومنصوب.(١) او بأنه الفعل الذى لم يكتف بمرفوعه ، كما عرفه فريق آخر بأنه الفعل الذى قد سلب الدلالة على الحدث وتجرّد للدلالة على الزمان .(٢) وبناء على هذا تكون « كان واخواتها » وأفعال المقاربة من الافعال الناقصة التى فقدت الحدث واحتفظت بالزمان فقط . وقد أجمع النحاة على أنّ هذه الافعال تدخل على المبتدأ والخبر فترفع الاول ويسمّى اسمها وتنصب الثانى ويسمى خبرها ، وفى ذلك يقول ابن مالك فى ألفيته : (٣)

نرفع كان المبتدا اسماً والخبر تنصبه ككان سيداً عمر

٢ ـ قسمة باطلة :

يعرّف النحويون الفعل بأنه ما دلّ على معنى بنفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة وهو ـ أى الفعل ـ فى اللغة نفس الحدث الذى يحدثه الفاعل من قيام أو قعود أو نحوهما.(٤) ومن هذا يتبين لنا أن الفعل يتألف من شيئين هما الحدث والزمان ، الا أنّ الحدث هو المقصود من الفعل ، قال ابن يعيش : انما وضع ـ يعنى الفعل ـ دليلا على الحدث المقترن بالزمان والاقتران وجد تبعا .(٥)

---

(١) شرح الرضى على الكافية ص ٢٧٦ طبعة ايران .
(٢) شرح التصريح على التوضيح [١/١٩٠] الطبعة الثالثة ١٩٢٥
(٣) شرح ابن عقيل على ألفيه ابن مالك [١/٢٢٦] الطبعة التاسعة ١٩٥٦
(٤) شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب لابن هشام الانصارى [ص ١٤] الطبعة السابعة ١٩٥٧
(٥) شرح المفصل تأليف ابن يعيش [٧/٣] طبعة محمد منير الدمشقى .

واذا كان الأمر كذلك فان الفعل الناقص يجب أن يكون هو والفعل التام مشتركين في هذا التعريف من جهة ، كما يجب أن يكونا مختلفين بعد ذلك في أمور فرعية ؛ لاتمسّ جوهر الفعل من جهة أخرى ليصحّ أن يكون كلاهما قسماً قائماً بذاته مع محافظته على طبيعة الفعل التي اعترف بها النحاة له . وعلى هذا الأساس يكون تعريف النحاة للفعل الناقص بأنه ما لا تتم الجملة معه الاّ بمرفوع ومنصوب تعريفاً غامضاً او قل : انه تعريف غير مانع كما يقول أهل المنطق ، ذلك لأنه يصدق على الفعل التام المتعدّى كضرب مثلاً فالجملة مع هذا الفعل لاتتم الاّ بمرفوع ومنصوب أي بفاعل ومفعول به ، فأنت اذا وقفت عند الفاعل فقلت : ضرب زيد كانت الجملة ناقصة ، لا يحسن السكوت عليها ، كان معناها لغواً وعبثاً . ومن هنا كان هذا التعريف تافهاً اذ لم يستطع أن يدعم وجهة نظر النحويين في انّ الفعل الناقص موجود حقيقة في اللغة العربية .

على أنّ فريقاً من النحاة قد شعروا بضعف هذا التعريف وقصوره عن تبيان الحدود الواضحة للفعل الناقص ، فاضطروا الى القول بتعريفهم الثاني ؛ ذلك التعريف الذي ينصّ على أن الفعل الناقص انما سمّي ناقصاً لأنه سلب الدلالة على الحدث وتجرّد للدلالة على الزمان ، وهذا يعني أنه فقد الحدث ، فقد معناه ، وبقي دالا على الزمان وعلى الزمان فقط .(١) ونحن ، بعد هذا ، نتساءل فنقول : أيّ فعل هذا الذي يفقد معناه فيصبح جثة هامدة ، ثم يعدّ فعلاً بين الأفعال ؟ أيصحّ عقلاً أن يجمع بين الفعل الدال على الحدث وبين الفعل الذي لا يدلّ على حدث في اطار وتحت عنوان واحد وقسم واحد من أقسام الكلمة ؟! وهل هناك معنى للفعل غير الحدث ؟ لاشك عندي في أنّ الجواب لابد أن يكون نفياً باتاً .

ولعلك تستطيع أن تتبين مما تقدّم أن الفعل الناقص كما عرّفه النحاة لا يمكن أن يكون قسيماً للفعل التام ، لسبب بسيط جداً ، هو أنّه ليس فعلاً ؛ لأنه لا يدخل في تعريف الفعل الذي قال به النحويون أنفسهم ، اذ أن الفعل من حيث معناه ، أو من حيث دلالته على الحدث لا يمكن أن ينقسم الى فعل تام ذي معنى ، والى فعل ناقص لا معنى له بل لابدّ من توفر الحدث في أي نوع من انواع الفعل ليصحّ ان يسمّى فعلا . وقديماً

(١) شرح التصريح ١/١٩٠ وشرح المفصل ٧/٩٧

قال ابن يعيش : الفعل فى الحقيقة ما دلّ على حدث والحدث الفعل الحقيقى فكأنه سمّى باسم مدلوله . (١) وبذلك يكون تقسيم الفعل على النحو السابق تقسيماً باطلاً لايستند الى واقع ولا الى منطق معقول ..

٣ - ليس للفعل الناقص وجود :

أحسب أن القارىء الكريم سيفزع من هذا العنوان ، أريد أن أقول انه سيسخر منه سخرا شديداً ؛ فقد ألفنا ، وألف الناس معنا « كان وأخواتها » و « كاد وأخواتها » أقول لقد ألفنا وألف الناس معنا هذه الاخوات والقريبات وألفنا غيرهن كثيرا فى تلك السلسلة الطويلة التى تنتظم موضوعات النحو الفاً شديداً منذ الصغر ، وحفظنا ، فيما حفظنا ، هذه القاعدة الخالدة القائلة بأن « كان وأخواتها » هى أفعال ناقصة ، وأنها تعمل فى المبتدأ والخبر عملا خاصاً بها أشرنا اليه قبل قليل . وأنت ، أيها القارىء الكريم ، تعلم علم اليقين ما للالف والعادة والمران من أثر شديد فى النفس وفى العقل أيضاً يصعب أن يتحرر منه الانسان ، بل يشق عليه أن يفكر فيه مجرد تفكير ، بيد أننى بالرغم من ذلك وجدت فى نفسى شعوراً حملنى على الخروج على هذه القاعدة الخالدة منذ زمن ليس بالقصير ؛ فقد راودني احساس عميق بأن كان وأخواتها وقريباتها انما هى أفعال مفترى عليها ، حين حكم عليها أهل النحو بالنقصان ، وخيل الى من خلال هذا الاحساس أنها أفعال تامة ، تتمتع بجميع خصائص الفعل من دلالة على الحدث ، واكتفاء بالمرفوع ، وتجاوز لهذا المرفوع الى المنصوب على نحو مانراه فى الافعال الاخرى . وكل ما هنالك من فرق بينها وبين هذه الأفعال هو أنها أفعال قد استعملت بعد فترات طويلة من التطور اللغوي استعمالاً خاصاً فى بعض وجوه استعمالها فى اللغة . وقد دفعني ذلك كله الى دراسة هذا الموضوع فى مصادره الأولى ، فعثرت فيها على ما يبعث فى النفس العجب كل العجب ، العجب لهذا الباطل كيف يكتب له الذيوع والانتشار ، والعجب لهذا الحق كيف يحكم عليه بالتوارى والاستتار . عثرت فى هذه المصادر على آراء مهمة وخطيرة ، تدل بوضوح ما بعده وضوح على أن هذه الافعال تامّة ، وأنها بريئة من النقصان . ولا أريد أن أطيل عليك الكلام ، وانما أريد أن أدون لك ما قاله الرضى الاستربادي فى هذه الأفعال لتقرأه وتتدبره وترى رأيك فيه وهذا نص كلامه (٢) :

---

(١) شرح المفصل ٧/ ٧٩

(٢) شرح الرضى على الكافية ص ٢٧٦

« ... وما قال بعضهم من أنها سميت ناقصة لأنها تدل على الزمان دون المصدر ليس بشيء ، لان كان في نحو كان زيد قائماً يدل على الكون الذى هو الحصول المطلق وخبره يدل على الكون المخصوص وهو كون القيام أى حصوله ، فجيء أولاً بلفظ دال على حصول ما ثم عيّن بالخبر ذلك الحاصل ، فكأنك قلت : حصل شيء ثم قلت حصل القيام ، فالفائدة في ايراد مطلق الحصول أولاً ثم تخصيصه .. وهناك فائدة أخرى وهي دلالته على تعيين زمان ذلك الحصول المقيّد ، ولو قلنا قام زيد لم يحصل هاتان الفائدتان معاً. فكان يدل على حصول حدث مطلق ، تقييده في خبره ، وخبره يدل على حدث معين واقع في زمان مطلق ، تقييده في كان ، لكن دلالة كان على الحدث المطلق أى الكون وضعية ، ودلالة الخبر على الزمان المطلق عقلية .. وأما سائر الافعال الناقصة نحو صار الدال على الانتقال ، وأصبح الدال على الكون في الصبح أو الانتقال ، ومثله أخواته ، وما دام الدال على معنى الكون الدائم ومازال الدال على الاستمرار وكذا أخواته ، وليس الدال على الانتفاء ؛ فدلالتها على حدث معين لايدل عليه الخبر في غاية الظهور ، فكيف يكون جميعها ناقصة بالمعنى الذى قالوه . »

وواضح جداً من كلام الرضى أنه يرفض الرأى القائل بنقصان هذه الافعال ، ويؤكد أن دلالتها على الحدث في غاية الظهور . ولكنه مع ذلك كله يسمّيها أفعالا ناقصة مجاراة للرأى السائد في كتب النحو ومسايرة للتيار الجارف الذى لا يقوى على الوقوف أمامه أحد .

٤ ـ اقوالهم تدينهم :

بالرغم من أن النحاة كانوا حراصاً على اثبات نقصان هذه الافعال ، وأنهم كانوا يعتبرون هذا النقص حقيقة لاشك فيها فيبنون آراءهم على هذا الاساس ، أقول بالرغم من ذلك كله أفلتت منهم آراء وأحكام في أثناء مناقشاتهم وتأويلاتهم تدل بوضوح على عكس ما يصفون ويصنعون ويقصدون . فقد كان الحق يغلبهم فيجرى على ألسنتهم حتى اذا شعروا بالحرج تكلّفوا العلل ، وزوّروا التأويلات ، وزعموا لهم نصراً مزيفاً في معركة هم فيها الخصم والحكم .

أ ـ من هذه الآراء : رأى الكوفيين في اعراب معمولى كان وأخواتها ، فالكوفيون شعروا ، على ما يظهر ، بقصور الرأى الشائع بين النحويين في اعراب ما دخلت عليه

كان فذهبوا الى أن خبر كان وأخواتها منصوب على أنه حال ، ففى كتاب « الموفى فى النحو الكوفى » نجد هذا التعريف [١] : « الافعال الناقصة : مالم يتمّ كلاماً الا بحال . » وذهبوا الى أن الاسم الذى بعد كان يعرب فاعلا . فقد قالوا [٢] : « .. ولا يكون - أى الحال - معرفة الا اذا كان صاحبه فاعل النواقص . » ومعنى ذلك أن الكوفيين يعربون (زيد) فاعلا ويعربون (قائماً) حالا منه فى نحو قولك « كان زيد قائماً » وقد ردّ الكوفيون على البصريين حين اعترض عليهم هؤلاء فى هذا الصدد اذ قالوا [٣] : « ولا يجوز أن يقال انه لو كان نصباً على الحال لما جاز أن يقع معرفة فى نحو : كان زيد أخاك ، وظننت عمراً غلامك ، والحال لا تكون معرفة ، لانا نقول : انما جاز ذلك لان أخاك وغلامك وما أشبه ذلك قام مقام الحال ، كقولك : ضربت زيداً سوطاً ، فان سوطاً ينتصب على المصدر وان كان آلة لقيامه مقام المصدر الذى هو ضربه ، وكذلك ها هنا ، على أنه قد جاءت الحال معرفة فى قولهم « أرسلها العراك وطلبته جهدك وطاقتك، ورجع عوده على بدئه الى غير ذلك فدل على صحة ما ذهبنا اليه » .

ب - ومن هذه الآراء : أن النحويين يقسمون الافعال الناقصة الى ثلاثة أقسام من حيث التصرف وعدمه ، قسم لا يتصرف مثل ليس ، وقسم يتصرف تصرفاً ناقصاً نحو مازال وأخواتها اذ لا يأتى منها الامر ولا المصدر ويعللون ذلك بعدم دلالتها على الحدث وقسم ثالث يتصرف تصرّفاً تاماً وهو الباقى من الأفعال الناقصة وذلك لمجيء الأمر والمصدر منها ، ويذكرون أن مصدر كان الكون ، والكينونة ، ومصدر أضحى وأمسى وأصبح الاضحاء والامساء والاصباح ومصدر صار الصير والصيرورة ومصدر بات البيات والبيتوتة ، ومصدر ظل الظلول . ثم يضيفون الى ما تقدّم قولهم : وللتصاريف فى هذين القسمين وهما المتصرف التصرف التام والتصرف الناقص ما للماضى من العمل. [٤] ويأتى ابن مالك فينظم هذا المعنى كله فى ألفيته اذ يقول :

وغير ماض مثله قد عملا ان كان غير الماض منه استعملا

---

(١) ص ١٣٢ تحقيق محمد بهجة البيطار ، وشرح التصريح على التوضيح ١/١٨٤

(٢) الموفى فى النحو الكوفى ص ٣٨

(٣) الانصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين تأليف ابن الانبارى النحوى ٢/٤٩٠

(٤) شرح التصريح على التوضيح ١/١٨٦

ويتسابق النحويون فى ايراد شواهدهم على عمل غير الماضى من هذه الافعال عمل الماضى ان كان غير الماضى منها مستعملا فى اللغة ، فجاءوا بقوله تعالى « ويكون الرسول عليكم شهيداً » شاهداً على عمل المضارع من كان وقوله تعالى « كونوا قوامين بالقسط » شاهداً على عمل الامر • وأوردوا قول الشاعر :

وما كل من يبدى البشاشة كائناً أخاك ، اذا لم تلفه لك منجدا

شاهداً على عمل اسم الفاعل • وقول الشاعر :

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى وكونك اياه عليك يسير

دليلا على عمل المصدر عمل فعله وهو كونك ، قال فى التصريح كونك مبتدأ وهو مصدر مضاف الى اسمه وهو كاف المخاطب واياه خبره من جهة نقصانه •

وقد أوردوا غير ذلك من الشواهد مما لا مجال لذكره الآن (١) •

وأنت اذا أمعنت النظر قليلا فيما تقدم تلاحظ فى سهولة ويسر تناقض النحويين مع أنفسهم ، أعنى تناقض أقوالهم فى المسألة الواحدة ، وهل تريد دليلا على هذا التناقض أقوى من جعلهم عدم ورود المصدر والامر من أفعال القسم الثانى دليلا على فقدانها الحدث ، دليلا على نقصانها ، بينما نراهم لا يعدّون مجيء الامر والمصدر من أفعال القسم الثالث دليلا على تمامها ؟ على أنه لو وقف النحويون عند هذا الحدّ ولم يتجاوزوه لهان الامر ولكنهم تعدّوه الى ما هو أغرب من ذلك ، فقد زعموا أن هذه التصاريف التى جاءت من أفعال القسم الثالث هى ناقصة أيضا ، ولذلك فهى تعمل عمل الماضى • وأنا لا أدرى فى هذا المقام مّم أعجب ، أأعجب من عقلى القاصر الذى لايستسيغ مثل هذا الكلام ، أم أعجب من النحاة الذين أبتكروا هذه القواعد وطلبوا الى الناس أن يتعلموها وأن يؤمنوا بها ؟! أنا اعترف لك أيها القارىء بأننى لا أستطيع أن أفهمها على النحو الذى يريده النحاة ، فظنّ بى ما شئت من الظنون • ولكن ألم يعرّف النحاة المصدر بأنه اللفظ الدال على الحدث مجرداً من الزمان أو بأنه اسم الحدث الجارى على الفعل ؟ نعم ! ألم يقولوا ان اسم الفاعل هو ما اشتق من فعل لمن قام به على معنى الحدوث ، أو انه صفة تؤخذ من الفعل المعلوم ، لتدل على معنى وقع من الموصوف بها ؟

---

(١) المصدر السابق ١/١٨٧ وشرح ابن عقيل ١/٢٣٢ - ٢٣٤

بلى ! اذن ما بالهم يتجاهلون كل هذا ويرمون المصدر واسم الفاعل بالنقص ؟ أفلم يتنبهوا الى أن المصدر اذا فقد الدلالة على الحدث لم يبق منه أثر ، والى أن اسم الفاعل اذا اتصف بالنقص لم يبق منه الا الموصوف ؟

ليس من شك عندى فى أن مجيء الامر واسم الفاعل والمصدر من هذه الافعال يعدّ دليلا قاطعا على تمامها ، فالفعل الذى يشتقّ من المصدر ـ على رأى البصريين ـ أو الذى يشتق منه المصدر ـ على رأى الكوفيين ـ يجب أن يكون تاماً لا ناقصاً ، اذ ليس من المعقول أن يأتى فعل ناقص من مصدر أو مصدر من فعل ناقص • ذلك لان المصدر يدل على الحدث دائماً ••

ج ـ ومن هذه الآراء ما ورد فى كتاب (أسرار العربية) لابن الانبارى [1] ، من أن بعض النحويين يذهبون الى أن كان وأخواتها حروف وليست أفعالا لانها لا تدل على المصدر ولو كانت أفعالا لكان ينبغى أن تدل على المصدر ولما كانت لا تدل على المصدر دلّ على أنها حروف • ثم أضاف ابن الانبارى الى ما تقدّم قوله : والصحيح أنها أفعال وهو مذهب الأكثرين والدليل على ذلك من ثلاثة أوجه ؛ الوجه الأول : انها تلحقها تاء الضمير وألفه وواوه نحو كنت وكانا وكانوا كما تقول قمت وقاما وقاموا وما أشبه ذلك • والوجه الثانى : أنها تلحقها تاء التأنيث الساكنة نحو كانت المرأة كما تقول قامت المرأة وهذه التاء تختصّ بالافعال • والوجه الثالث : انها تتصرف نحو كان يكون وصار يصير وأصبح يصبح وأمسى يمسى ، وكذلك سائرها ما عدا ليس • وأما قولهم انها لا تدل على المصدر ولو كانت أفعالاً لدلت على المصدر قلنا هذا انما يكون فى الأفعال الحقيقية ، وهذه الافعال غير حقيقية •

فى هذا الكلام مسألتان : الاولى أن كان وأخواتها حروف وليست أفعالا ، والثانية ان كان وأخواتها لا تدل على المصدر • أما المسألة الاولى فقد فنّدها ابن الانبارى نفسه بأوجهه الثلاثة المتقدمة • وأما الثانية فقد سبق أن ذكرنا أن النحاة أنفسهم قد اعترفوا صراحة بأنّ لهذه الافعال مصادر ، وأن هذه المصادر تعمل عمل الماضى واستشهدوا على ذلك كما مرّ بنا •• ولكن ماذا يمكن أن يستنتج من هذا كله ؟ أما أنا فأستنتج منه فى غير مشقة أن النحاة كثيرا ما يخبطون فى بحوثهم خبط عشواء ، فهم ، حين يزعم بعضهم

(١) ص ٥٥ طبعة ليدن

أن كان وأخواتها حروف وليست أفعالا ينبرى فريق منهم آخر فيبرهن بما لا مزيد عليه على أن كان وأخواتها أفعال وليست حروفاً ، ولكنهم لا يلبثون على هذه الحال الا قليلا حتى يعاودهم الانحراف أو يخامرهم الداء ـ داء النقص ـ الذى رموا به كان وأخواتها ظلماً وعدواناً فيعتذروا عن عدم ورود المصدر من هذه الافعال بأنه انما يكون ذلك فى الافعال الحقيقية وهذه الافعال غير حقيقية ويعنون بهذا أنها أفعال ناقصة ونسى هؤلاء أو تناسوا أن زملاءهم قد نصوا على وجود مصادر لأكثر هذه الأفعال كما مرّ بنا .. على أننا نريد أن نسلمّ جدلا بأنّ هذه الافعال لا مصادر لها ، فهل يعنى هذا أنها ناقصة حقاً ؟ واذا كان الامر كذلك ، فماذا يقول النحاة فى أفعال المدح والذم ؟ بل ماذا يقولون فى صيغتى التعّجب ؟ أيعدّونها أفعالا تامة أم أفعالا ناقصة ؟ لقد أعربوها اعراب الافعال التامة دون أن يذكروا لنا مصادرها . يضاف الى ما تقدم أننا لم نعرف أن هناك أفعالا حقيقية وأخرى غير حقيقية .

د ـ ومن هذه الآراء ما ورد فى كتاب مغنى اللبيب لابن هشام الانصارى تحت عنوان « هل يتعلقان بالفعل الناقص » وذلك قول المؤلف (١) : « من زعم أنه ـ يعنى الفعل الناقص ـ لا يدل على الحدث منع من ذلك وهم المبرّد فالفارسى فابن جنّى فالجرجاني فابن برهان ثم الشلوبين والصحيح أنها كلها دالة عليه الا ليس . »

وابن هشام الانصارى فيلسوف النحاة يسجل رأيه فى الافعال الناقصة فى هذه العبارة بوضوح اذ يرى أنها تدل على الحدث ولكنه مع ذلك يرى أنها ما تزال ناقصة لسبب بسيط هو أنها لم تكتف بمرفوعها ، وهو رأى طائفة من النحويين أيضا منهم ابن مالك صاحب الألفية الذى قال (٢) : « وذو تمام ما برفع يكتفى . » وقد سبق أن بيّنا زيف هذا الرأي وتفاهته وعدم جدواه . ولكننا مع هذا نسأل ابن هشام وأصحابه فنقول : اذا كانت هذه الافعال دالة على الحدث فمن ذا الذى يقوم بهذا الحدث ، ولمن يسند ياترى ؟ انه مما لا ريب فيه عندى أنّ الاسم المرفوع الذى يلى هذا الفعل جدير بأن يقوم به ، ولهذا فانه من الخطل أن نسمّى هذا الاسم الذى هو مسند اليه لانه قام بالحدث اسماً لكان ولا نسميه فاعلا لكان .

---

(١) ٢/٤٣٦ تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد .

(٢) شرح ابن عقيل على الالفية ١/ ٢٤٠

على أن بعض النحويين قد شعروا بأنهم متعسفون فى آرائهم فأرادوا أن يخففوا من وطأة هذا التعسف فجاءوا بتعريف غريب للأفعال الناقصة اذ قالوا [١] : « هذا باب الافعال الداخلة على المبتدأ والخبر فترفع المبتدأ تشبيهاً بالفاعل ويسمى اسمها حقيقة وفاعلها مجازاً ، وتنصب خبره تشبيهاً بالمفعول ويسمى خبرها حقيقة ومفعولها مجازاً لانها أشبهت الفعل التام المتعدّى لواحد . » ونحن لا نعرف - فيما تعلمنا من النحو - هذا المبتدأ الذى يشبه الفاعل ، ولا هذا الخبر الذى يشبه المفعول ، وانما الذى نعرفه هو أن الجملة العربية امّا أن تكون فعلية مؤلفة من فعل وفاعل ، واما أن تكون اسمية مؤلفة من مبتدأ وخبر . أما هذه الجملة التى يكون فيها الفعل مترجّحاً بين التمام والنقصان ويكون فيها المسند اليه مبتدأ يشبه الفاعل ، وفاعلا يشبه المبتدأ ، أما هذه الجملة التى تكون فى منزلة بين المنزلتين لتنقذ النحاة مما تورّطوا فيه حينما زعموا أن هناك أفعالا ناقصة ، فأمر لا نعرفه كما لا تعرفه قواعد النحو الاولى .

٥ - خاتمة :

لقد أطلت عليك - أيها القارىء الكريم - فى غير حاجة الى التطويل ، فالمسألة أيسر من ذلك بكثير كما يخيل الىّ ، وان كنت فى شك مما نقول فاليك خلاصة رأينا :-

اقرأ هذين التعبيرين بامعان وتدقيق وهما : (جاء زيد راكباً وكان الله عليماً) فهل تجد بينهما فرقاً جوهرياً من حيث الاعراب ؟ ستقول : نعم ، وستعربهما اعراباً تقليدياً ، ستعرب التعبير الاول على أنه فعل وفاعل وحال ، وستعرب الثانى على أنه فعل ناقص واسمه وخبره . سيكون اعرابك على هذا النحو بحكم العادة والمران والدربة . ولكن هل لي أن أطلب اليك أن تقرأ التعبيرين السابقين ثانية بعد أن تحذف منهما الكلمتين الاخيرتين قراءة تدقيق وامعان أيضا ؟ وهل لى أن أطلب اليك مرة أخرى أن تتذوق المعنى وان تتدبره ولكن فى معزل عن الأطار النحوى ؟ ان استجبت لهذا الطلب المتواضع فانك ستجد ، دون شك ، ان التعبيرين يدلاّن على معنى تام ، على معنى يحسن السكوت عليه ؛ فقد أسند المجيء الى زيد فى أولهما كما أسند الكون أو الكينونة الى الله عز وجل فى ثانيهما وفى كلا التعبيرين - كما ترى - توفر ركنا الجملة فى اللغة العربية وهما المسند والمسند اليه .. ثم دعنى اثقل عليك مرة ثالثة فأطلب اليك أن تقرأ التعبيرين

(١) شرح التصريح على التوضيح ١/ ١٨٤

المذكورين بعد أن تعيد اليهما ما حذف منهما • أعني أن تقرأهما على أصلهما •• ان فعلت ذلك ، فليس من شك في أنك ستحسّ احساساً عميقاً بأنّ هذين اللفظين الاخيرين (راكباً وعليماً) قد بيّنا هيئة المسند اليه في هذين التعبيرين ، والمسند اليه فيهما ، كما رأيت ، هو الفاعل لتقدم الفعل على المسند اليه ، أريد أن أقول انك ستضطر الى القول بأنهما لايمكن أن يكونا الاّ حالين وانك ستؤمن ان عاجلاً أو آجلاً بأن اعراب (عليماً) حالاً من لفظ الجلالة في هذا الموضع أجدى وأليق بالمعنى المقصود من اعرابها خبراً لكان على الطريقة التقليدية ، ذلك لان اعراب (عليماً) خبراً لكان يعني وصفه تعالى بالعلم في الزمن الماضي باعتبار (كان) لفظاً دالا على الزمان فقط كما يزعم النحويون بينما المقصود في هذا التعبير وصفه تعالى بالعلم بوقوع أو حصول شيء معين في وقت معين مثلا ، وهذا معنى لايؤدى بغير الحال • وقد عبرّ عن ذلك الامام الرضى بالكون المخصوص الذي يحصل في نطاق الكون المطلق الذي يستفاد من كان •

أما المفسّرون فقد شعروا بما يصيب معنى الآيات الكريمة من افساد اذا هم تابعوا النحويين في زعمهم انّ كان خالية من الحدث وانها دالة على الزمان فقط ولذلك نراهم ينصّون على أن لها معنى بل معاني ذكروها بالتفصيل • لقد قال السيوطي [١] : وتأتي (كان) بمعنى الدوام والاستمرار نحو وكان الله غفوراً رحيماً ، وكنا بكل شيء عالمين اى لم نزل كذلك • وعلى هذا المعنى تتخرج جميع الصفات الذاتية المقترنة بكان •

وقال أبو بكر الرازي [٢] : « كان في القرآن على خمسة أوجه : بمعنى الازل والأبد كقوله وكان الله عليماً حكيماً ، وبمعنى المضي المنقطع وهو الأصل في معناها نحو وكان في المدينة تسعة رهط ، وبمعنى الحال نحو كنتم خير أمة ، انّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، وبمعنى الاستقبال نحو يخافون يوماً كان شرّه مستطيراً ، وبمعنى صار نحو وكان من الكافرين • »

ماذا ترى في هذين النصّين ؟ ألا يشيران الى أنّ كان تدل على الدوام والاستمرار والأزل والأبد والصيرورة ؟ أليس كل اولئك معاني لاتخرج عن نطاق الكون والكينونة والوجود والحصول والوقوع ونحوها ؟ لاريب عندي في أن الجواب نعم ! •••

---

(١) و (٢) الاتقان ١/١٦٨

ولعلك بعد هذا كله قد ادركت أننى أذهب الى أن كان وأخواتها هى أفعال تامة قاصرة تسند الى الفاعل فقط كقوله تعالى : وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة • وقد يؤتى بعد فاعلها بمنصوب هو وصف فضلة يبين هيئة الفاعل ولا يمكن أن يعرب الا حالا •

وبعد ، لقد شغل النحاة أنفسهم بهذا النحو كما شغلوا الناس به مئات من السنين وسيشغلونهم به مئات أخرى اذا لم يتهيأ له من يعيد النظر فى أبوابه وقواعده وأحكامه وعلله لاختصارها وتيسيرها لجعله أداة نافعة للدارسين الذين يهمهم من النحو أن يقرأوا وان يكتبوا على وجه صحيح • ومن هنا نقول : لقد آن لهذا الليل البهيم أن ينجلي عن هؤلاء الصبية والصبايا فى حجرات الدرس ، كما آن للذين كتب عليهم السرى فى هذا الليل البهيم الطويل أن يستريحوا من وعثاء الطريق قليلا •••

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی